العدد (1858) السنة السابعة - الأحد (25) تمـوز 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

بصمة إبداع غوستاف.. برج إيفل

(١٠١٠٠) طن من الحديد تتحول إلى قلادة سحر تزين مدينة النور

باريس / يوسف المحمداوي

البرج من ميدان تروكاديرو

باريس في عيون المدى

– لقد تأخرنا يا كاظم.

– كم الساعة؟

– الخامسة مساءاً

– لسنا في بغداد يا يوسف، نحنِ في باريس التي لا تغيبِ عنها الشمس إلا بعد الساعة العاشرة ليلاً، ومع ذلك أنا معك في مسألة التأخير، لأن اليوم عطلة وسنضطر للوقوف طويلاً مع طوابير الزائرين لقطع تذاكر الدخول.

صعدنا المترو وما هي إلا نصف ساعة لنجد أنفسنا متوسطين ميدان "تروكا ديرو" أو ما يسمى قصر شايو، فيما يقف برج إيفل شامخاً خلفه، ميدان كبير وكأنه صمم ليكون مدرجات لمسارح وساحات عرض لفرق موسيقية ومسرحيات لهواة ومحترفين.. هناك رقصة لفرقة افريقية، وهنا عزف لفرقة هولندية، رسامون افترشوا الأرض عارضين إبداعات ريشهم، فنان بورتريت يغريك برسم وجهك في الميدان، كانت لي الرغبة في ذلك، ولكن لطول انفي أحكام أعاقت تحقيق تلك الرغبة، ونحن نحث الخطى صوب وليد غوستاف (مصمم البرج) الشرعي، واجهتنا عن يمين ميدان (تروكا ديرو) حشود من الزائرين افترشوا حدائق تخلب العقول بعد الذهول، وهم يتابعون مباريات كأس العالم في جنوب أفريقيا من خلال شاشة بلازما عملاقة نصبت أمام البرج.

٢٦ شهراً مدة الإنجاز

وقفنا في طابور طويل يقع في الجهة اليسرى من البرج، وهو مخصص للراغبين في صعود البرج عن طريق المصعد، أما طابور الجهة اليمنى منه فهو لأصحاب العافية القادرين على تسلقه من خلال السلم، وبعد ساعة ونصف من الانتظار تمكنا من قطع التذاكر ودخول عالم هذا المارد الحديدي الساحر.. هل صحيح أنا في باريس وداخل برجها الذي لم أره إلا في مواضيع مختصرة أثناء الدراسة أو في الأفلام؟.. نعم أنا في البرج.. الساعة حينها تشير الى الثامنة مساءً حسب التوقيت الفرنسي.

ولما يمتلكه من ملامح فرنسية ولغة كانت لأخي كاظم القدرة على كسب ود العاملين ومعرفة ما لا نعرفه عن البرج من موظفيه، أحدهم يدعى دنيس ساله قال: قام المهندس غوستاف بيل بتصميم هذا البرج في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٨٨٧ ليكون مدخلاً للمعرض الكوني الذي أقيم في باريس عام ١٨٨٩ لجعله يتوافق مع الذكرى المئوية للثورة الفرنسية آنذاك، مضيفاً، ان العمل فيه استمر لمدة (٢٦) شهراً بمشاركة ما يقارب الـ (٣٥٠) شخصاً ما بين مهندس وعامل لتنتهي جميع الأعمال فيه في الحادي والثلاثين من آذار ١٨٨٩، وتم افتتاحه رسمياً في السادس من تموز من العام نفسه.

كلفة البناء استردت من مبالغ تذاكر الدخول

كلف بناء البرج مادياً نحو (٧,٨٠٠,٠٠٠) فرنك ذهبي فرنسي، تم استرداد معظم المبلغ من تذاكر دخولية المعرض الكوني في العام نفسه، وهنا استوقفني سؤال كبير، بناء بهذه الدقة والضخامة تم تشييده بفترة قياسية وبأدوات تعود لذلك القرن وبقدرة بشرية محدودة ومبلغ تم استرداده من تذاكر دخوله.. لماذا ونحن في القرن الواحد والعشرين وبعد مضي سبع سنوات وفي ظل موازنات انفجارية لم نحظ ليس ببناء، بل بترميم ما هدم او عطل من مبانينا، آثارنا، معاملنا، شوارعنا، كهربائنا، مائنا.. و.. و.. وتتعدد البلوى والحزن واحد، لم أجد جواباً مقنعاً لسؤالي غير حسرتي والعودة للاستماع الى ما تجود به ذاكرة السيد دنيس عن البرج.

شيد البرج على مساحة قدرها (١٥,٦٢٥) متراً مربعاً ويرتكز في تشييده على أربعة أعمدة تكون فيما بينها قاعدة تبلغ أبعادها ١٢٥ × ١٢٥ متراً، ويزن البرج (١٠,١٠٠) طن من الحديد، حيث استخدمت في بنائه (١٨,٠٣٨) قطعة حديدية و (٢,٥) مليون مسمار.

نحن الآن في الطابق الثاني، وهذا الطابق يحتوي على عدد من المطاعم ومحال بيع التحف التذكارية.

ملك العلو لأربعين عاماً

وأنا أدور في طابقه الثاني بأكثر من عين على ذلك السحر استوقفتني حكاية قرأتها يذكر فيها أن أحد السياح في أفريقيا شاهد لوحة ثبتت على شجرة كتب عليها (في حالة هجوم وحيد القرن أصعد ثمانية أقدام، أما في حالة هجوم الفيل فأصعد (١٤) قدماً لتكون أكثر أماناً).. أما نحن فنحتاج الى أكثر من (٣٢٤) متراً وهو ارتفاع برج إيفل لنكون بمنأى من هجمات الإرهاب والأزمات وصراعات الساسة التي أصبحت الصفة السائدة للمشهد.

كان ارتفاع البرج عند الإنشاء (٣٠٠) متر، ولكن بعد إضافة الهوائي الخاص بالبث الإذاعي والتلفازي أصبح (٣٢٤) متراً ويحتوي على سلم مؤلف من (١٦٦٥) درجة، فضلاً عن وجود المصاعد التي تبلغ قمة البرج وتقوم بأكثر من مئة رحلة يومية، أي بمعدل رحلة واحدة لكل ثماني دقائق.

> عندما زار العالم توماس أديسون البرج في العاشر من أيلول عام ١٨٨٩ كتب في سجل الزائرين (الى مهندس هذا البرج أيفل أهنئك على شجاعتك الكبيرة في بناء هذا الصرح الجميل وهذه المعجزة الهندسية، لقد تفوقت ونلت احترام جميع مهندسي العالم).

اعتلى المهندس غوستاف إيفل كرسي العرش لمدة أربعين عاماً كملك لأعلى بناء في تاريخ البشرية قام بتشييده الإنسان، لكنه فقد ذلك العرش على يد ناطحة السحاب (امبايرتسيت) التي شيدت في نيويورك عام ١٩٣١ المكونة من (١٠٢) طابق بعلو (٤٤١) متراً، وهكذا نزل غوستاف عن كرسي سلطان العلو لكنه أعتلى صهوة المجد ببقاء قلادته التي صاغها بحديد الإبداع على نهر السين.

نقد ومدح لأقامته

فاتنا ان نذكر أن تحت البرج يوجد تمثال نصفي مذهب صغير لمهندسه غوستاف، وفي الطابق الأول من البرج يوجد المتحف السمعي والبصري المؤرشف لحكاية تشييده من الألف الى الياء مقروناً بالوثائق والصور، الغريب أن هذا المتعلق بأبهته الحديدية وسحره وإطلالته البهية على نهر السين كان من الممكن ان يذهب الى معامل صهر الحديد وينتهي وجوده، حيث لاقى في بداية تشييده اعتراضات الكثير من الشخصيات الأدبية والفنية وأصبح موضوع نقد يومي من قبل الصحف الصادرة آنذاك واعتبروه كتلة حديد مشوهة لمدينة النور، وما يشير الى ذلك أن القاص موباسان والذي كان من اشد المعترضين على وجوده حين سئل لماذا يواظب على تناول وجبة الغداء في مطعم البرج وهو المعارض لأقامته رد قائلاً: انه المكان الوحيد الذي لا يمكن رؤية هذا البرج منه.

ولكن في الوقت نفسه عندما زار العالم توماس أديسون البرج في العاشر من أيلول عام ١٨٨٩ كتب في سجل الزائرين (الى مهندس هذا البرج أيفل أهنئك على شجاعتك الكبيرة في بناء هذا الصرح الجميل وهذه المعجزة الهندسية، لقد تفوقت ونلت احترام جميع مهندسي العالم).

اختراع اللاسلكي أنقذ حياة البرج

ويضيف سانترو الذي انضم مع دنيس في رحلتنا مع البرج، ان اختراع البرق واللاسلكي وارتفاع البرج هما من ساهما في إنقاذه من الفك وإنهاء مصيره في مصانع صهر الحديد. لأن مسألة ارتفاعه جعلت منه هوائياً مميزاً ليتم استغلاله في مسألة البث الإذاعي وهذا ما تحقق عام ١٩١٨، وكذلك بالنسبة للبث التلفزيوني، حيث دخلت الخدمة فيه عام ١٩٥٧ بعد إجراءات طويلة ابتدأت منذ ثلاثينيات القرن الماضي.

أصبح البرج قبلة العديد من العلماء والمهندسين والباحثين ليستخدموه في إجراء التجارب العلمية المختلفة سواء كانت المتعلقة بالطقس وسقوط الأجسام الحرة والرصد وغيرها، مضيفاً، أن طول الطابق الأول منه يبلغ (٥٧,٦٣) متراً، ويحتوي البرج على مطعمين هما مطعم (Altitude٩٥) ومطعم (Ligules Verne) ولهما مصاعد خاصة تقع في الركن الجنوبي من البرج.

لنا الله يا وطن..!!

يا الله ماذا أرى..؟ تحولت عيوني بدهشة السؤال نحو أخي، هل تصدق ما أراه؟.. أحد السياسيين العراقيين كان معنا على البرج برفقة امرأة، صرخ كاظم نعم هذا هو (.....)، قلت له أعطني نظارتك الشمسية حتى لا يعرفني وخذ الكاميرا والتقط له بعض الصور فهو سيحسبك فرنسياً بالملامح التي وهبها الله لك على عكس ما وهبني وبالطبع أحمده عليها.. ذهب بالفعل يصطاده بالصور وبقيت أنا اصطاد حسراتي بالجملة متسائلاً: هل من المعقول أن السياسيين من أمثال هذا يمتلكون ضمائرٌ، قلوباً، عقولاً تحمل ذرة من الوطنية والشعور بالمسؤولية إزاء وطن ومواطن يعيش داخل حلبة من الأزمات والمعاناة، يترفهون بأموالنا.. نعم بأموالنا التي منحتها لهم قوانين شرعوها هم لأنفسهم لينعموا بها في هذه المدينة او تلك على حساب جوع شعب وغياب خدمات..؟ يضحك مع المرأة التي ترافقه وبكائي في داخلي يصرخ صامتاً.. لنا الله يا وطن.

جاءني أخي بالصور وهو يقول هل من المعقول والوضع السياسي في العراق بهذه الصورة وعملية تشكيل الحكومة تمر بمخاض عسير وهذا (.....) هنا، وهو بالأمس يطل علينا من خلال الفضائيات متحدثاً بالوطنية وبوجوب النهوض بواقع البلد والآن سارحاً ضاحكاً على البرج بصحبة امرأة؟ قلت له نعم كل شيء ممكن في بلد تعود أن يألف غير المألوف.

حقيقة جمال عارية

قمت بحث قلبي على النبض وترك ذلك المشهد وقلت كن كقطارهم السريع يا يوسف واستوعب أكثر عدداً من الركاب.. عفواً المشاهد قبل نهاية الحلم.

في الطابق الثالث وجدت الكرة الأرضية هناك، أفريقيا، آسيا، أوروبا، أميركا بشقيها، استراليا، كل شيء حقيقي إلا أنا مهشم من الداخل وأدعي القوة.. حزين الى حد اليأس بملامح سرور، في قمة البرج الفتنة بقمتها السحر على أشده، النساء بلا مساحيق تجميل، فقط مكياج الخالق وروعة التوزيع في صنعته لتلك الوجوه، لا ستائر او نوافذ تفصلك عن رؤية السماء.. حقيقة جمال عارية تحاورك بأنفاس العطر الفرنسي لتنتشي حد الثمالة في متعة الحياة، تذكرت حينها عواصفنا الترابية، الحواجز الكونكريتية، درجات الحرارة، نقاط التفتيش، بيوت الصفيح.. تذكرت ما يحل بنا من دمار وأنا أطل على بيوت باريس من برجها وكأنها لوحات مرسومة أو تماثيل منحوتة بروعة الفن وليست حجارة حولتها أيادي المبدعين المحبين لأوطانهم الى هذا النسق العالي من الجمال.

لحظات مرعبة

جلست على كرسي لأستريح قليلاً بجوار سيدتين التفت يميناً ويساراً لم أجد أخي وصديقيه المؤقتين، سقطت من قلبي وذهني كل المتعة وانا أعيش حالة الذعر والرعب، تذكرت حينها حكاية لفيلسوف الابتسامة المسرحي الفرنسي تريستان برنار حين طلب من أحد عمال المطعم ان يقدم له الحساء وعندما جاءه بالطبق قال له برنار: أسف لا استطيع تناوله، عاد إليه العامل بنوع آخر من الحساء وكرر برنار ما فعله بالمرة الأولى قائلاً: أسف لا استطيع تناوله ما آثار حفيظة صاحب المطعم الذي قال له: لم يشتك أحد من الزبائن او يرفض تناول حساء مطعمنا اللذيذ، فأجابه برنار: أنا واثق أنها لذيذة ولكني لم أحصل على ملعقة لأتناولها.. نعم كل هذا الجمال لا يمكن أن نتناوله من غير الملعقة –عفواً اللغة.

وبعد ربع ساعة من الانتظار المرعب جاءت ملعقتي لغتي التي من خلالها أتناول سحر باريس.. جاءني ضاحكاً بصحبة رفيقيه الفرنسيين وهم يحملون بعض الحلوى والمرطبات.

> لم تغب عن بال المهندس غوستاف مسألة استخدام الإضاءة الصناعية لإنارة البرج، حيث تم تركيب أول نظام إضاءة له عام ١٨٩٩، وفي عام ٢٠٠٠ واحتفالاً بألفيته الجديدة تم تركيب نظام متكامل من الإضاءة يحتوي على (٢٠،٠٠٠) مصباح

أول نظام للإضاءة عام ١٨٩٩

عادت لي المتعة وأنا استمع إلى حديث سانترو وهو يقول: مع بدايات تشييد البرج لم تغب عن بال المهندس غوستاف مسألة استخدام الإضاءة الصناعية لإنارة البرج، حيث تم تركيب أول نظام إضاءة له عام ١٨٩٩، وفي عام ٢٠٠٠ واحتفالاً بألفيته الجديدة تم تركيب نظام متكامل من الإضاءة يحتوي على (٢٠،٠٠٠) مصباح إضاءة بواقع (٥٠٠) مصباح في كل جانب، وهناك (٤٠) كم من الأقطاب الكهربائية الرابطة ما بين (٢٣٠) لوحة وصندوقاً كهربائياً، فضلاً عن عشرة آلاف متر من شبكات الأمان الكهربائية تغذى بـ(١٢٠) كيلو واط من الطاقة.

وهو يتحدث قلت في نفسي، يا سبحان الله متطلبات الكهرباء تلك عممتها وزارتنا في بغداد وعموم المحافظات، خاصة في مناطق الأطراف كالشيشان وحي طارق والمعامل والمعالف وهور رجب عملاً بشعارها الدائم (خدمة المواطن أولاً!!.. وبيوت المسؤولين في ظلام دامس!!).

تسعة ملايين زائر سنوياً

زميلنا دنيس أشار إلى أن البرج يدر مبالغ طائلة على مدينة باريس تصل سنوياً إلى ملايين اليوروات، لأن سعر تذكرة الدخول للشخص الواحد هي (٩) يورو، وتعود ملكية البرج وموارده إلى بلدية باريس التي لديها شركة متخصصة تقوم بإدارة البرج لصالح البلدية، مضيفاً، أن المهندس غوستاف كان يتوقع أن يزور برجه (٥٠) الف زائر سنوياً، لكن توقعاته لم تكن بمحلها، حيث بلغ عدد زوار البرج في السنة الأولى لافتتاحه مليوني زائر، حتى وصل العدد إلى تسعة ملايين زائر في العام الماضي ومن بلدان العالم كافة، لأن من غير المعقول- والكلام لدنيس- أن تزور فرنسا وتفوتك مشاهدة برجها.

ثورة ١٤ تموز

انعطف القلب باتجاه بغداد وأنا أرى العلم العراقي في لوحة علقت في قمة البرج ومثبت مع العلم المسافة ما بين بغداد وباريس البالغة (٣٨٧١) كم، التقطت الصورة للعلم الذي لا يزال يحمل النجوم وتذكرت بأني قلت في حلقة سابقة من يوميات المدى في باريس أن القاسم المشترك ما بين بغداد وباريس هو حرف الباء ولكن بعد عودتي الى وطني تذكرت وأنا أدخل بيت السفير الفرنسي بدعوة منه ان ما يجمعهما أيضاً هو ١٤ تموز العيد الوطني لجمهوريتي العراق وفرنسا وعندما قدمت له التهاني بالعيد وجدت هناك العديد من قيادات الدولة، أعضاء برلمان، وزراء، سفراء دول عربية وأجنبية، مثقفين، إعلاميين، اجتمعوا في بيت أنشط سفير أوروبي في العراق على مائدة امتزجت فيها الجبنة الفرنسية مع كبة البرغل العراقية، البيتزا الباريسية مع الكباب العراقي، النبيذ الفرنسي مع شربت الزبيب، الأومليت مع المخلمة العراقية، والأغاني الفلكلورية العراقية تصدح داخل البيت الفرنسي في حين خلت شوارع بغداد من مظاهر الفرح بيوم عيدها الوطني باستثناء تظاهرة للحزب الشيوعي في ساحة الفردوس والاحتفالية التي أقامتها مؤسسة المدى ببيتها في شارع المتنبي.. نعم هكذا تمر أيام أعيادنا، أما أيام أحزاننا فتحفل بالكثير.

(٣٥٠) حالة انتحار من البرج

يقول دنيس: أن البرج ومنذ إنشائه شهد ما يقارب (٣٤٥) حالة انتحار ولكن تلك الظاهرة توقفت تماماً بعد أن تم وضع الإجراءات الوقائية فيه.. تساءلت مع نفسي كيف يقدم إنسان سوي على الانتحار وهو يرى هذا الجمال والسحر الإلهي الساطع على الأرض..؟، ماذا يفعل هؤلاء لو شاهدوا حجم الخراب الذي حل ببلدي؟

سألتهم كيف تحافظون على هذا العملاق الحديدي من الصدأ، بين دنيس ان هناك عمليات صيانة وإعادة طلاء منتظمة تتم على البرج، وهذا الأمر يحدث كل سبع سنوات حيث يتم استهلاك ما يقارب الـ (٥٠) طناً من الطلاء وتتم العملية بفترة زمنية تستغرق خمسة عشر شهراً، ويقوم بهذه العملية (٢٥) عاملاً مدرباً لهذه العملية، ومنذ بناء البرج وحتى عام ٢٠٠٣ جرت عليه ثماني عشرة عملية طلاء، كانت آخرها جرت في الفترة الممتدة ما بين كانون الأول عام ٢٠٠١ حتى تموز عام ٢٠٠٣.

أما الآن بلدية باريس قررت أن يكون طلاء البرج خارجياً من الدور الأول الى القمة كل خمس سنوات، أما طلاؤه بالكامل فيتم كل عشر سنوات.

من ينصفك يا دليل يعقوب

قطعت حديثه ملتفتاً صوب ملوية سامراء وقلت: أنصفوك يا غوستاف إيفل، فمن ينصف مهندسنا العراقي الكلداني دليل يعقوب الذي قام بتصميم وتشييد الملوية عام ٨٤٩م، وحينها كانت تعد أعلى مئذنة في العالم، حيث يبلغ ارتفاعها (٥٢) متراً.. أتذكرها حين كنا نزورها طلاباً بسفراتنا المدرسية، أتذكر كيف كنا ندور بدرجها الحلزوني البالغ (٣٩٩) درجة عكس عقارب الساعة نتبارى للوصول الى قمتها حتى نجلس عليها، أين هي الآن؟ تلك التي أرغم جمال تصميمها حاكم مصر بن طولون على ان يشيد جامعة على شاكلتها ولشكلها الساحر وعظمة تصميمها الفني قامت وزارة الأوقاف في دولة قطر بإنشاء مركزها الثقافي بما يشابه تصميمها تماماً، وصمم منتجع ياباني يطل على المحيط الهادي يسمى (مانزامو اوكين بارك) تماماً على شكل ملويتي... ملويتي التي طالها التفجير أواخر عام ٢٠٠٦ من قبل الإرهابيين وتعرضت جوانبها وقمتها للتهشيم وهي الآن بانتظار رحمة المعنيين بسياحتنا من ساستنا.. وهنيئاً لك غوستاف على برجك وقد نقولها لمهندس ملويتنا دليل يعقوب يوماً ما.

في كل شيء حاولي أن تتقيني

ودعنا إيفل ودنيس وسانترو وانا أردد مع نفسي دون أن أدري من أقصد باريس أم بغداد مقاطع من قصيدتي قناع قابيل:

في كل شيء حاولي أن تتقيني..
لا شك أن الشك بعض من يقيني..
في كل شيء حاولي أن تتقي هذا الصحيح
المرتدي زيّ الغلط..
أنا لص أمتعتي وأتهم الجميع.. أدلتي
صمتي فقط
انا من أنا.؟
تابوت منكسر يشيعه التفاؤل بالقنوط
أنا إبرة عمياء في وطن شوارعه خيوط
والى يوميات جديدة للمدى الأحد المقبل

اجتمعت الكرة الارضية هناك